الدورة القرائية ٣٣

كتاب

حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين

د. عبدالرحيم السلمي

المقدمة

إعداد مركز رسيل للاستشارات التربوية والتعليمية

https://kkitab.com

Katib_Kitab

إن تحديد المفاهيم والحقائق على المنهج الشرعي له أثر كبير في صحة التصور والمعتقد، وتزداد الأهمية عندما يكون المفهوم متعلقاً بأصل الدين وأساسه، ومن المفاهيم التي وقع فيها اضطراب كبير (حقيقة التوحيد ومفهومه).

ومما لا شك فيه أن **للتوحيد أهمية كبرى في العقيدة**، فالتوحيد هو أول ما يدخل به العبد في الإسلام، وهو مفتاح دعوة الرسل، وأول واجب على العبد، وآخر ما يجب أن يخرج به العبد من الدنيا، وأهمية التوحيد وفضله أمر متفق عليه بين طوائف المسلمين، والذي وقع فيه الخلاف بينهم هو في مفهومه وحقيقته.

وأول ما وقع الخلاف في مفهوم التوحيد هو عندما وقع التفرُّق في الأمَّة بعد مقتل عثمان بن عفان -رضي اللّه عنه-، وقد كانت أول قضية عقدية وقع فيها التفرق هي مسألة (الإيمان)؛ حيث كفّرت الخوارج عصاة المسلمين غلواً منهم في منزلة العمل.

ثم ظهرت بعد ذلك المرجئة كرد فعل للخوارج فأخرجوا العمل من مفهوم الإيمان، واعتبروا الإيمان هو مجرد التصديق القلبي دون عمل القلب والجوارح، وبهذا أخرجوا توحيد الألوهية من الإيمان، فإن عمل القلب والجوارح هو حقيقة توحيد الألوهية.

ثم لمّا ظهر جهم بن صفوان ابتدع القول بنفي الأسماء والصفات؛ مع قوله بقول المرجئة، فاستحكم بهذا الانحراف في مفهوم التوحيد وحقيقته؛ حيث انحرفت الجهمية في مفهوم التوحيد بشطريه العلمي والعملي.

ولمّا جاء الأشاعرة والماتريدية أخذوا ما عند الجهمية من تصورات ضالة في مفهوم التوحيد وحقيقته في الجملة، وبهذا وقع الخلاف الكبير بين أهل الكلام من جهة، وأهل السُّنَّة من جهة أخرى في مفهوم التوحيد وحقيقته.

وبناءً على هذا الخلاف فقد اختلفت بينهم المعايير والمقاييس في اعتبار هذا أو ذاك موحداً أو مشركاً، كما اختلفت بينهم معايير نواقض التوحيد ومبطلاته، ومن آثار هذا الخلاف أنه في الوقت الذي يعتبر أهل السُّنَّة فيه الاستغاثة بغير اللّه تعالى فيما لا يقدر عليه إلا اللّه شركاً مخرجاً من المِلَّة، يرى أهل الكلام أن ذلك لا يعتبر شركاً.

وحقيقة التوحيد لم تكن غامضة عند أصحاب الرسول ﷺ والتابعين من بعدهم، والفرق الكبير بين تصور الصحابة الكرام لحقيقة التوحيد وبين تصور أهل الكلام له لم يحدث دفعة واحدة؛

بـل بـدأ بـالانحراف فـي مفهـوم الإيمـان واعتبـاره التصديق القلبي المجرد.

ثـم تـلاه الانحـراف فـي مفهـوم الإلـه، مـع التـأثر بمنـاهج الفلاسـفة فـي تصـور التوحيـد عـلى أنـه تجريـد نظـري للإلـه مـن الصفات الثبوتية.

إلى أن وصـل الحـال إلى تسـويغ الشـرك وتجـويزه، بـل إيجابـه باسـم احتـرام الأنبيـــاء والأوليـــاء والصـــالحين وتقـــديرهم ومعـرفة الفـضـل لأهـله -زعموا-.

ولم يقف الأمر عند ممارسات شركيّة يقوم بها العوام عند القبور ونحوها، بل أصبح أهل العلم في القرون المتأخرة في مقدمة من يمارس هذه الشركيات، مع تقديم الآراء العلميّة المبيحة لهذه الأعمال.

وتجاوز الأمر حدّه عندما حُرّف الدين نفسه من المنتسبين إلى العلم، فقالوا: التوحيد الذي شرعه اللّه تعالى، وأرسل لأجله الرسل، وأنزل الكتب، هو: اعتقاد وحدانية اللّه تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، كما أصبحت المفاضلة -عندهم- في التوحيد بتركهم للأسباب الشرعيّة، والفناء في ذلك، وهذا الاعتقاد -عندهم- هو العبادة التي لا تصرف إلاّ للّه تعالى، أما الدعاء والاستغاثة والذبح ونحو ذلك فلا تعتبر عبادة -عندهم-؛ ولهذا صرفوا هذه الأعمال لأهل القبور والأولياء الأحياء في زمانهم.

وتزداد المشكلة عندما نعلم أن هذا الاتجاه الخطير أصبح في فترة ماضية هو السائد، وهو الأصل في حياة المسلمين في شرق البلاد الإسلاميّة وغيرها، في الوقت الذي يُعتبر فيه أهل الحق قلة مستضعفة بين هذه الجموع المتكاثرة الضالة.

وعندما ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- وجد الأمَّة تتخبط في الشرك، فالحياة العامة يمارس فيها العوام والمنتسبون إلى العلم الشرك صراحة باسم التوحيد، وكُتب التوحيد العلميّة امتلأت بتقرير توحيد الربوبية فقط ونفي الصفات، وأن العبادة هي اعتقاد توحيد الربوبيّة ونفي الأسباب.

فلما أظهر الدعوة إلى التوحيد كان من الطبيعي أن يقف هؤلاء صفاً واحداً ضده.

والحقيقة أن مصدرنا الأساسي في فهم التوحيد ومعرفة أحكامه ليس هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولا غيره، بل المصدر هو كتاب اللّه تعالى، وسُنة رسوله ﷺ، وما أجمع عليه سلف الأمَّة.

هذا وعندما رأيت الموضوع بهذه الخطورة والأهميّة أحببتُ المشاركة بالكتابة فيه، علماً أنني لم أرَ أحداً بحث الموضوع بهذه الطريقة، وأكثر الأخوة الباحثين عندما يتحدثون عن التوحيد عند المتكلمين يكتفون بمناقشتهم في الأسماء والصفات، وهم أشهر من خالف السلف في هذا الموضوع، أما توحيد الألوهيّة وتتبّع منهج المتكلمين فيه فلم أرَ أحداً تعرض له في بحث علمي متكامل.

ولعل الأمر الجديد الذي يضيفه هذا البحث هـو معرفـة مـنهج المتكلمـين بوضـوح فـي مسـألة توحيـد الألوهيّـة، مـع تلمـس الأسـباب التـي جَعَلَـتْهم يلغـون مفهومـه الشـرعي، وبيـان الآثـار المترتبة على هذا الإلغاء، وكذا الربط بين المتأخرين منهم -الذين صرحوا بما لم يصرح بـه المتقـدمون- مـع المتقـدمين، وبيـان أن الأصول العقدية واحدة، وأن النتيجة التي توصل إليها المتأخرون طبيعيّة لمن بنـى عـلى آثـار المتقـدمين. أمـا مـا يتعلـق بالربوبيّـة والأسـماء والصـفات فقـد اجتهـدتُ فـي الاكتفـاء بـأثر مفهـوم التوحيد -عندهم- عليها، إلا ما اقتضته طبيعـة البحـث وظروفـه. وقد اجتهدت في بيان منهج أهل السُّنَّة والجماعة بأدلته في كـل المسائل التي لها تعلّق بالبحث.

هذا، وقد ناقش البحث الموضوعات الآتية:

مفهوم التوحيد العام وأقسامه، مع المقارنة بين أهل السُّنَّة والمتكلمين، ومحاولة الخلوص بنتيجة تبين مدى التوافق، أو الاختلاف بينهم فيه.

التوحيد العلمي، وأثر مفهوم التوحيد على أفعال العباد والأسماء والصفات، مع ذكر الأصول العقليّة التي نفى من أجلها المتكلمون الصفات كلها، أو بعضها .

التوحيد العملي (توحيد الألوهيّة)، وبيان منهج أهل السُّنَّة فيه، مع توضيح أسباب إهمال المتكلمين له وآثار هذا الإهمال، مع شرح مفهوم العبادة عند المتأخرين.

الشرك العلمي والعملي مع بيان شبهات المتكلمين المتأخرين في تبرير الشرك.